العُشاري في العمارة الإسلامية

د. عصام سليمان عياد•

الملخص

العُشاري عنصرٌ زخرفيٌّ طَريف على هيئة زورقٍ صغير يعلو بعض القباب والمنائر في عمارة مصر الإسلامية على وجه الخُصوص، ومثالٌ عليه ذلك المركب النُّحاسي الذي كان موجوداً فوق منارة الجامع الطولوني (٢٦٥هـ/٨٧٩م)، والذي ظلّ محتفظاً بمكانه عليها حتى بعد أعمال البناء والترميم التي قام بها المنصور لاجين عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م. وأغلب الظن أنه قد نُزع ثم أعيد إلى مكانه مرةً أخرى بعد أعمال لاجين. ومهما يكن من أمر فلقد سقط ذلك المركب عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م،كما نعرف من الجبرتي، إثْر ريحٍ عاتية أتت على المدينة بأسرها. إلاّ أنه أُعيد إلى مكانه مرةً أخرى—أو لعله استبدلَ بآخر—لأنه يظهر في عدد من الرسومات التي نُفّذت لمنارة الجامع الطولوني في القرن التاسع عشر. فيما لا تزال القبة القبلية لخانقاة فرج بن برقوق بالصحراء، والتي بنيت في الفترة ما بين ٨٠٢هـ/١٤٠٠م و٨١٤هـ/١٤١١م، تحتفظ بمركبٍ صغيرٍ من النحاس. إلّا أنّ أشهرتلك العشاريات قاطبةً هو ذلك المركب البرونزي الصغير الذي تزدان به قبة الإمام الشافعيّ الضريحية بالقاهرة (٦٠٨هـ/١٢١١م)، والذي تُفيد المصادر بأنه كان يُملأ بالحبوب لتقتات عليها الطيور السائبة، في حين ذهب البعض إلى أنه رمزٌ لما كان عليه الشافعيّ من سعة العلم والمعرفة، حتى لُقّب ببحر العلوم. يعتقد بعضُ مؤرخي الفنون أنّ العشاري مأخوذٌ من العمارة المصرية القديمة، وأنه أخذ هذا الاسم من شكله الذي على هيئة زورق العشاري الصغير الحجم. أمّا البعض الآخر فيرى أن مسمّى العشاري قد جاء من كونه كان يُملأ بعشور الحبوب على وجه الصدقة . وعلى الرغم من قلة النماذج الباقية للعشاري، فإن ما يتصف به هذا العنصر الزخرفيّ من الطرافة والتميز قد لفت إليه أنظار الرحّالة والمؤرخين ودارسي الفنون في الماضي والحاضر. غير أنّ مجموع ما كتب عنه لا يكاد يشفي غلةً أو يدفع أُواراً؛ فمعظمها كتابات وصفية مقتضبة ومكرّرة. لذا يهدف هذا البحث إلى تتبع نشأة العشاري ودراسة نماذجه،سواء الباقية أو تلك التي اندثرت، وكذا معرفة الوظيفة التي كان يؤديها والقيمة التي عسَاه يرمز إليها.

الكلمات الدالة: العشاري، مركب، قبة، مئذنة، اشتقاق، وظيفة، رمزية.

• كليّة السياحة جامعة قناة السويس

المنارة للاستشارات
www.

المقدمة

يكاد لا يخلو طرازٌ من طرز العمارة في العالم، سواء قديماً أو حديثاً، من الحليّات (finials) التي تزين قممَ عمائره الهامّة— لا سيما القباب والأبراج والمنائر. والعمارة الإسلامية تزخر بتنوع كبير في هذا الصدد؛ حيث تفنن المعمار المسلم في تتويج ما شيّده من قباب ومآذن بالعديد من العناصر الزخرفية الرشيقة. فلقد أورد المسعودي (ت. ٣٤٦هـ/٩٥٧م) في "مُروج الذهب"أن مسجد دمشق قبل ظهور النصرانية كان "هيكلاً عظيماً فيه التماثيل والأصنام على رأس منارته تماثيل منصوبة،[...] ثم ظهرت النصرانية فجعلته كنيسة، وظهر الإسلام فجُعل مسجداً وأحْكم بناءه الوليدُ بن عبد الملك، والصوامع منه لم تُغيَّر، وهي مَنَائر الأذان إلى هذا الوقت".[١] كما نعرف من أبي المحاسن المعرّي (ت. ٤٤٢هـ/١٠٥٠م)مثلاً أنت مثالاً لفرس من صفر (نحاس) كان يعلو منارة مسجد البصرة في أيام سيبَوَيْه عمرو بن عثمان بن قنبر (ت. ١٨٠هـ/٧٩٦م).[٢]كذلك فقد زُوّدت مئذنة جامع القَرويين في فاس، إثر الفراغ من بناءها عام ٣٤٥هـ (956م)،بسيف منسوب للإمام إدريس الثاني (ت. ٢١٣هـ/ ٨٢٨م)،[٣]أماقبة قصر باب الذهب الذي بناه المنصور العباسي (ت. ١٥٨هـ/٧٧٥م) في بغداد فقد زُينتبتمثال لفارس بيده رمح.[٤]هذا إضافةً إلى ما أورده أبو طالب المأموني (ت. ٣٨٣هـ/٩٩٣م) في "يتيمة الدهر"من شعرٍ يصف فيه منارةً في أعلاها سراج.وأغلب الظن أن مثل هذه السُّرج لم تكن تنصب فوق قمة المنارات، أي في الجزء الذي توضع به الأهلة، وإنما كانت تثبّت في الطابق العلوي بحيث يتسنّى لمن يرتقى المنارة بهدف الآذان أو غيره أن يوقدها بسهولة ويسر.ولقد قال الشاعر: "لا تبال ويك بالخسارة، وأكثر السُّرج على المنارة"، كما ورد في "نزهة الأنام" للبدري ما نصّه: "وبنى الوليد المنارة التي يقال لها العروس وجعل عدةً من المصابيح توقد عليها في كل ليلة".[٥]وقد أنشد الإربلي:

---

[١] أبو الحسن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق كمال حسن مرعي، ٤ أجزاء (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥)، ج. ٢، ص. ٢٠١.

[٢] أبو المحاسن التنوخي المعري،تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو (الرياض: إدارة الثقافة والنشربجامعةالإماممحمدبنسعودالإسلامية، ١٩٨١) ص. ٩٤-٩٥.

[٣] أحمد بن خالد الناصريالسلاوي،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ٩ أجزاء (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٩٧) ج ١، ص. ٢٣٣.

[٤] أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ١٩ جزء (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢) ج ٨، ص. ٧٨.

[٥] أبو البقاء عبد الله البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٢٣)، ص. ٤١.

المنارة للاستشارات
www.

وقد جاوز الجوزاء فيه مآذن * بأكنافها نور الجلالة محْدِق
فواحدها منه الهلال سوارةٌ* وأخرى لها الجوزاءُ قرطٌ معلّق
وأخرى ترى الإكليل في غسق الدجى * يُزان بها منها جبينٌ ومِفرق[٦]

من بين كل هذه العناصر الزخرفية، وغيرها، يُعد الهلال هو الأكثر شهرة وانتشاراً.ووفقاً لعددٍمعتبرٍ من الباحثين في مجال العمارة والفنون الإسلامية، فإن عادة وضع الأهلّة على المنائر قد استحدثت في عصر العثمانيين (١٢٩٩/٦٩٩-١٩٢٣/١٣٤١) الذين كانوا قد أخذوا تلك العادة عن قياصرة الدولة البيزنطية.إلا أنه يُفهم من المصادر العربية أن الأهلّة كانت تزين قمم المآذن قبل الدولة العثمانية بزمان. ولعل من أقدم ما وصلنا من أمر الأهلّة في الإسلام هو ما ذكرهعز الدين ابن شداد (ت. ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، مؤرخ بلاد الشام في عصر الظاهر بيبرس، حيث قال: "لمّا جاءت الزلزلة بمدينة حلب وهدمَت أكثر دورها وأهلكت جماعةً من أهلها. وكانت ليلة الإثنين ثامن عشر شوال سنة خمس وستين وخمسمائة حركت المنارة(التي كان قد كَمُل بناؤها عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م) فدفعت هلالاً كان على رأسها مقدار ستمائة قدم وتشقّقت".[٧] كذلك ما أورده ابن العماد من حوادث سنة ثمان وتسعين وثمانمائة من خبر الصاعقة التي حلّت بالمسجد النبوي، فأصابت مناراته الرئيسية "بحيث تفطّرت خوذة هلالها وسقط جانب دورها السلفي".[٨]

إذا كانت الأهلّة هي أكثر تلكالحليّات شيوعاً، فإن العُشاري ربما يكون أكثرها طرافةً وتميّزاً. فما هو العشاري؟العُشاري عنصرٌ زخرفي على شكل مركبٍ صغير تزدان به قمةُ بعضِ القباب والمآذن في العمارة الإسلامية في مصر على وجه الخصوص.ولعل أشهر مثال لهذه العُشاريات هو ذلك الموجود فوق قبة الإمام الشافعي بالقاهرة (شكل ١).إلا أن مجموع ما كتب عن هذا العنصر الزخرفي — على الرغم من طرافته—لا يكاد يشفي غلّةً أو يدفع أُوَاراً؛ فمعظمها كتابات مقتضبة ومكرّرة في عدد محدود من كتب العمارة الإسلامية، لعل أهمها وأكثرها أصالةً ما

[٦]محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، ٥ أجزاء (بيروت: دار صادر، ١٩٧٣)، ج ٣، ص. ٣٠٨.
[٧]ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبادة (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩١) ص. ١١٣. للمزيد عن ابتداء أمر الأهلة في الإسلام انظر محمد عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، الطبعة الثانية، تحقيق عبد الله الخالدي، جزءان (بيروت: دار الأرقم، بدون تاريخ) ج. ١، ص. ٢٦٥.
[٨]شهاب الدين ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ١٠ أجزاء (دمشق: دار ابن كثير، ١٩٩٣)، ج١، ص. ٥٤٢. يذكر السخاوي أن الصاعقة التي سببت الحريق كانت قد وقعت في رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة انظر شمس الدين السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، تحقيق أسعد طرابزوني الحسيني، ٣ أجزاء (القاهرة: أسعد الطرابزوني، ١٩٧٩). ج ١، ص. ٧٥.

المنارة للاستشارات
www.

كتبه حسن عبد الوهابفي "تاريخ المساجد الأثرية"، في معْرِض حديثه عن قبة الإمام الشافعي.[٩] هذا بالإضافة إلى مقال بعنوان "مقام الإمام الشافعي والعشاري" لمحمود وصفي محمد، كان قد نُشر في العدد الثاني من مجلة كلية الآثار سنة ١٩٧٧.[١٠] إلّا أن هذا الأخير لا يعدو كونه تكراراً لما كان قد ذكره حسن عبد الوهاب في كتابه المشهور الذي خرجت طبعته الأولى عام ١٩٤٦، ومن قبله محمود عكوش فى كتابه الذي نُشر عام ١٩٢٧.[١١]

كما يوجد أيضاً بحثٌ بالفرنسية نُشر عام ١٩٩٨، بعنوان: 'La Barque de l'Imam aš-Šāfi'ī'، قدّمه J. Van Reeth ضمن فعاليات المؤتمر الدولي الخامس عن مصر والشام في العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية (مايو ١٩٩٦).[١٢] وعلى الرغم مما يوحي به عنوان هذا المقال من وثوق الصلة بموضوع البحث، إلا أنه لم يقدم جديداً يذكر؛ حيث أمعن الباحث في طَرْح بعينه، وهو محاولة إثبات الصلة بين مركب قبة الإمام الشافعي وسفينة نوح عليه السلام، كما أنه— في سبيل ذلك— قد حمّل النصوص التاريخية ما لا تحتمل سواء من حيث المعنى أو المبنى.ونحن في هذا المقام سنحاول أن نُلقي مزيداً من الضوء على هذا العنصر الزخرفي اللافت بهدف التعرف على نشأته والفكرة التي عساه يجسدها،وذلك من خلال مناقشة اشتقاقه من حيث الشكل والمسمّى،ودراسة ما وصلَنا خبره من أمثلةٍ له — سواء الباقية أو تلك التي اندثرت. يدلف البحث بعد ذلك إلى مناقشة أصل فكرة العشاري، وهو ما يستدعي تحديد أي من نماذجه كان أسبق إلى الظهور، ومن ثم تحديد وظيفته وما كان يرمز إليه من قيمة. ثم ينتقل البحث أخيراً إلى استعراض نتائج تلك المناقشة فيما يخص النشأة والشكل وكذا الوظيفة والرمزية.

---

[٩] حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، الطبعة الثانية (القاهرة: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٣)، ج ١، ص.١١٢-١١٣.

[١٠] محمود وصفي محمد، «مقام الإمام الشافعي والعشاري»، مجلة كلية الآثار، العدد الثاني (١٩٧٧)، ص ٢٢٠-٢٣٢.

[١١] محمود عكوش: تاريخ ووصف الجامع الطولوني (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٧)، ص. ٨٢-٨٣.

[12] In *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras II: Proceedings of the 4th and 5th International Colloquium*, ed. by UrbainVermeulen and D. De Smet (Leuven: Peeters Publishers, 1998), pp. 249-64.

المنارة للاستشارات
www.

شكل ١: عشاري قبة الإمام الشافعي

الاشتقاق

يعتقد بعضُ مؤرخي الفنون أن عنصر العُشاري قد أخذ هذا الاسم من شكله الذي على هيئة زورقٍ نيليّ صغير الحجم، يسمى العُشاري أو العُشَيْري (شكل ٢).[١٣] سمّاه عبد اللطيف البغدادي "العَشْري"، وذلك في رحلته المسماة "الإفادة والاعتبار"، التي أنهى كتابتها سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م.[١٤] ويذكر ابن جبير (الذي زار مصر سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م) أن هذا النوع من المراكب في زمانه كان أشبه ما يكون بقوارب النجاة التي تسير وراء السفن الكبيرة.[١٥] وقد اختلف المؤرخون في مردّ تسميته: فمنهم من أرجع ذلك إلى كونهيُجَر بعشرين مجذافاً—عشرة في كل جانب؛[١٦] في حين ذهب البعض إلى أن العشاري قد أخذ هذا الاسم لأنه عادةً ما يتسع لعشرة

---

[١٣] يعرِّفه حسن عبد الوهاب على أنه: "مركب صغير خاص بالنيل والخلجان، منه ما هو خاص بالملك ومنه ما هو خاص بكبار رجال الدولة، وهو ذو ألوان لطيفة". انظر: تاريخ المساجد الأثرية. ص ١١٢، هامش١. انظر كذلك ابن الطّوير، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، حققه أيمن فؤاد سيد (شتوتجارت: فرانتسشتاينر، ١٩٩٢)،ص٢٠٢-٢٠٣.

[١٤] عن زورق العشاري ووصفه واستخداماته. انظر، عبد اللطيف البغدادي، رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر المسماة كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر،تحقيق: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨) ص ١١٦-١١٧.

[١٥] انظر، ابن جبير، الرحلة، تحقيق: د. حسين نصار (مكتبة مصر، ١٩٥٥)، ص. ٣١٢.

[١٦] يعرّفه سالم بن عبد الله الخلف في كتابه: "نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس" بقوله: "العشاري أو العُشيْري نوع من المراكب، يجر بعشرين مجدافاً، ويستعمل في الأنهار والبحار للرحلات القصيرة.

المنارة للاستشارات
www.

أشخاص.[١٧] وإجمالاً، فقد أطلق اللّغويون مسمى العشاري على كل مابلغ طوله عشرة أذرع.[١٨] على جانبٍ آخر، فإن هناك من لا يميل إلى الربط بين عنصر العشاري الزخرفيّ وذلك اللون من الزوارق، معتقداً أن مسمّى "العُشاري" قد جاء من أنه كان يُملأ بعُشُور الحبوب على وجه الصدقة، حتى تتغذى عليها الطيور السائبة(شكل ٣).

شكل ٢: رسم لزورق العشاري

شكل ٣: صورة حديثة تظهر العشاري وبعض الحمائم على قبة الإمام الشافعي

أولاً: أمثلة باقية للعشاري

أ- عشاري قبة الشافعي

أُنشئت قبة الشافعي، ووضع على قمتها العُشاري، علي يد السلطان الكامل الأيوبي عام ٦٠٨هـ/١٢١١م. والعُشاري من البرونز، وهو مثبّت في الهلال وتتدلى منه سلسلة حديدية. يذكر كل من كريسويل وسعاد ماهر أن طوله يبلغ قرابة المترين

[١٧] انظر أبو عبد الله محمد بن بكر القضاعي، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الثانية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥)، ج ١، ص.٢٩٧، حاشية رقم ١.

[١٨] أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلين طبعة جديدة ومحققة، ٦ أجزاء (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١)، ج ٤، ص. ٢٩٥٢.

المنارة للاستشارات
www.

(شكل ٤: أ، ب، جـ، د).[١٩] أما الغرض من وضعه على القبة، ففيه رأيان: وفقاً للأول منهما فإنه كان يُملأ بالحبوب لتقتات عليها الطيور،وأن السلسة الحديدية إنما قد أعدت ليتسلقها الإنسان لوضع تلك الحبوب وبعض الماء. وأول من أفاد بهذا بهاء الدين العاملي (الذي رأى العشاري سنة ٩٩٢هـ/١٥٨٤م)، تَبِعه — من بين آخرين —علي باشا مبارك (ت. ١٨٩٣م). وقد قال الأخير بأن العشاري كان يسع ما مقداره نصف إردبٍّ من الحبوب.[٢٠]

أما الرأي الآخر، ويمثله حسن عبد الوهاب، فلا يميل إلى الإعتقاد بأن الغرض من تثبيت السلسلة الحديدية التي تتدلى من العشاري هو مساعدة من يريد الوصول إلى المركب لوضع الماء والحبوب للطيور.[٢١]ووفقاً لوجهة النظر هذه، فأن العُشاري إنما هو رمزٌ لما كان عليه الإمام الشافعي من سعة العلم والمعرفة، فلقد لُقّب ببحر العلوم. ولقد ورد في هذا المعنى عدة أبياتٍ من الشعر،[٢٢] لعل أقدم ما وصل إلينا منها هو ما نَظَمهالبوصَيْري الذي تُوفّي عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م (أي بعد ٨٧ عام فقطمنإنشاء القبة)،حيث يقول:

بقبّةِ قبـرِ الشـافعيِّ سفينةٌ * رستْ في بنـاءٍ محكمٍ فوقَ جُلـمودِ
ومذ غاضَ طوفانُ العلومِ بِقبره استوى * الفُلْكُ من ذاك الضريحِ على الجودي

وقال علاء الدين أبو عليّ عثمان بن إبراهيم النابلسي (الذي عاصر القرن السابع الهجري):

لقد أصبح الشافعيّ الإمامُ * فينا له مذهبَ مــذهبُ
ولو لم يكن بحرُ علمٍ لمــا * غدا وعلى قبره مركبُ

كما أشار إلى ذلك العشاري الصفدي في ترجمة محمّد الطّائي القفصي، وهو محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد الطّائي القفصي الأصل والمولد (عاصر

---

[١٩] سعاد ماهر،مساجدمصروأولياؤهاالصالحون، ٥ أجزاء (القاهرة: المجلسالأعلىللشؤونالاسلامية، ١٩٧١)، ج ٢، ص.١٥٧.

K.A.C. Creswell, *The Muslim Architecture of Egypt: Volume II Ayyūbids and Early BaḥriteMamlūks* (Oxford: Clarendon Press, 1959), p. 71.

[٢٠] علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ٦ أجزاء (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٨٨٩) الجزء ٥، ص. ٢٥.

[٢١] حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص ١١٢.

[٢٢] انظر تقيّ الدين أحمد المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، ٣ أجزاء (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٨)، ج ٣، ص. ٦٩٤.

المنارة للاستشارات
www.

القرنين السابع والثامن الهجريين).[٢٣] إذ قال الشيخ أثير الدين أبو حيان قراءةً: "وأنا أسمع رأيته بالقاهرة وكان يستجدي بالشعر وله أدب، وأنشدني المذكور لنفسه":

سَقَى قبةَ الشافعيِّ الإمامِ * من الكوثرِ الأعينُ الجارية
له قبةٌ تحتـــها سيـــدٌ * وبحـــرٌ له فوقها جـارية

كما يقول الأديب الكاتب ضياء الدين أبو الفتح موسى بن مُلهَم (عاصر القرنين الثامن والتاسع الهجريين):

مررتُ على قبةِ الشافعيِّ * فعاين طَرْفي عليها العُشاري
فقلتُ لصحبي لا تعجـبوا * فإنّ المـــــراكِبَ فوقَ البحارِ

وقال آخر:

أتيتُ لقبرِ الشافـعيّ أزورُهُ * تعرّضَنا فُلْكٌ وما عندهُ بحـــرُ
فقلتُ تعالَى الله تِلكَ إشـارةٌ * تشيرُ بأن البحرَ قد ضمَّهُ القبرُ

كما أورد ابنُ الزيات شعراً لم يسم صاحبه،[٢٤] جاء فيه:

ألا حيّــها من قبةٍ ذاتِ أنوار تضيء * فيهدي ضوءها في الدّجى الساري
يشير إلى النــاس العُشـــاري بأنني * علوتُ على بحـــرٍ من العلم زخّار

وأخيراً، فإن هناك من جمع بين الرأيين: ذلك الذي يقول بأن العشاري كان قد أعد ليملأ بالماء والحَب، والآخر الذي يرى أنه رمزٌ لسعة علم الشافعي. فقد نقل إلينا عبد الغني النابلسي(الذي زار مصر سنة 1105هـ /١٦٩٢م) في رحلته الموسومة "الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز" طرفاً من ذلك، إذ يقول:"ورأينا على قبة الإمام الشافعي من جهة الخارج سفينة من خشب مربوطة بالهلال يوضع فيها الحَبّ للطيور،[٢٥] ومن شعره:

يا قبةً للإمام الشافعيِّ زَهَـــت * بـهـا القرافةُ في مصرَ لهيبتِه
لو لم يكن تحتها بحرُ العلومِ لما * ســفينةُ الحَبِّ كانت فوق قبتِه

[٢٣] انظر صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفَيَات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ٢٩ جزء (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠) ج ١، ص. ١٤٦-١٤٧.

[٢٤] "وقال المؤلف عفا الله عنه: أنشدني بعض أصحابي الفضلاء: حكوا قبة للشافعي وما حكوا، بحار علوم تحتها تتدفق. به كان للإسلام نور وبهجة، وللدين والدنيا جمال ورونق [...]. انظر شمس الدين ابن الزيات، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٠٧)، ص. ٢١٢.

[٢٥] انظرعبد الغني بن إسماعيل النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق أحمد عبد المجيد هريدي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦)، ص. ١٩٢.

المنارة للاستشارات
www.

شكل ٤: (أ)

شكل ٤: ب

المنارة للاستشارات
www.

شكل ٤: جـ

شكل ٤: د

شكل ٤ (أ،ب،ج،د): عشاري قبة الشافعي في مراحل زمنية مختلفة ومن زوايا متعددة

المنارة للاستشارات
www.

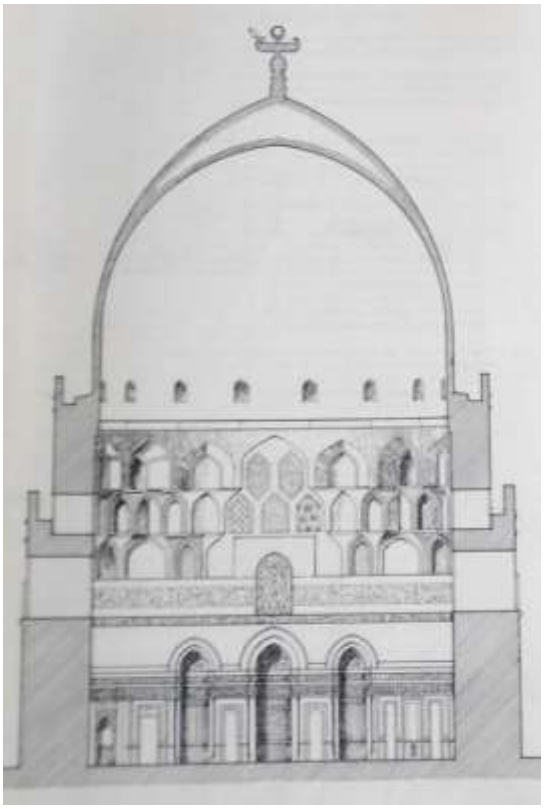

شكل ٥: مقطع رأسي لقبة الإمام الشافعي من عمل لجنة حفظ الآثار العربية- نقلاً عن كريسويل
(Creswell, *The Muslim Architecture of Egypt*, II, Fig. 31)

أما في العصر الحديث فإن أول من أشار إلى عشاري قبة الشافعي هو السير الأيرلنديWilliam Wildeفي كتابه "Narrative of a Voyage" ، وذلك في عام ١٨٣٨.[٢٦] بعد ذلك بعامين فقط تكلم عنه المستشرق الإنجليزي Edward William Laneفي كتابه "Cairo Fifty Years Ago"، حيث يقول ما ترجمته: "وفوق القبة (تحت الهلال مباشرة) يوجد نموذج لمركب، يبدو كدوّارة الرياح. وهو يُملأ مرةً كل عام، في يوم ميلاد الإمام في شهر شعبان، بإردبٍ (وهو ما يساوي خمسة بواشل إنجليزية) من القمح يوضع لتقتات عليها الطيور."[٢٧] وهو الأمر الذي كرره Francis

[26] William Robert Wilde, *The Narrative of a Voyage to Madeira, Teneriffe, and Along the Shores of the Mediterranean* (Dublin: William Curry, 1840).
[27] Edward William Lane, *Cairo Fifty Years Ago*, ed. by Stanley Lane-Poole (London: John Murray, 1896), p. 126. See also E. W. Lane, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians: Written in Egypt During the Years 1833-1835* (The Minerva Library 13), Londres 1842 (1890), p. 434.

المنارة للاستشارات
www.

Frith عام ١٨٦٢، وأضاف إليه أن العشاري كان يملأ كذلك بحمل بعير من الماء.[٢٨] كذلك فقد كتب عنه StanleyLane-Poole في كتابه "Social Life in Egypt".[٢٩] ثم تَبِعهم جميعاً K.A.C.Creswell الذي بيّن لنا كيف كان يُرتقى إلى العشاري، حيث يقول أنه شاهد في عام ١٩٥١ رجلا يدعى الحبّال، كان يعمل ملاحظاً للبنائين في لجنة حفظ الآثار العربية،وقد أمسك بالسلسلة الحديدية المثبتة في حامل العشاري ثم أقام ظهره، ومن ثمّصعد القبة، وعندما وصل إلى العشاري جعله يدور حول نفسه ببطء.[٣٠]

ب- عُشاري قبة خانقاة فرج بن برقوق

هو مركبٌ صغير من النحاسمثبّت فوق القبة الجنوبية الغربيةلخانقاة السلطان الناصر فرج بن برقوق بالصحراء،والتي بُنيت في الفترة ما بين ٨٠٢هـ/١٤٠٠م-٨١٤هـ/١٤١١م، (شكل ٨: أ، ب)،وهنا يجب التنويه على أن كُلّاً من قبتي الخانقاة كانت تزدان بعشاري خاص بها. وهو ما يظهر بوضوح في الرسم الذي نفذه برس داڤن والذي يعود تاريخه إلى عام ١٨٧٧ (شكل ٦)، وكذلك الصورة التي التقطها كل من كارولين وچون وليامز في مطلع القرن العشرين (شكل ٧). إلّا أن العشاري الخاص بالقبة الشمالية الشرقية قد سقط بعد هذا التاريخ بوقت وجيز. وهذا العشاري محفوظ الآن في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وهو مصنوع من النحاس وله فتحات ربما كانت تستعمل، مثلما في قناديل تلك الفترة، لوضع الزيت أو الفتيل (شكل١٠).[٣١]

وبحسب البعض فإنجزءاً من الوقفكان قد خُصّصللحبوب والغلال لتقتات عليه طيور الحِمى، إلا أنّنا لا نجد في حجة الوقف ما يعيّن الوسيلة التي من شأنها أن تساعد على الوصول لقمة القبة، التي لا يبدو تسلقها أمراً منطقياً.ومن ثم فإنه يتعذر الوصول إلى المركب؛ الأمر الذي حدا بحسن عبد الوهاب إلى أن يسوقذلك دليلاً على أن مثل تلك المراكب ما هي إلا نوع من الأهلة، وليست لوضع الحبوب كما يرى البعض.[٣٢]ونحن في هذا المقام نقول أن هذا تعميم في غير محله؛فما ينطبق على نموذج من نماذج العشاري لا يجب بالضرورة أن ينسحب على النماذج الأخرى. إذ من الوارد جداً أن كلاً من تلك العشاريات كانت له وظيفة ورمزية مختلفة عن

[28]Francis Frith, Egypt, *Sinai and Palestine, Supplementary Volume* (London: William Mackenzie, 1862), text to sixth Plate.
[29]Stanley Lane-Poole, *Social Life in Egypt: A Description of the Country and its People*,(London: Virtue, 1884), pp. 44-5.
[30]Creswell, *Muslim Architecture of Egypt*,II, 71, n. 2.
[31]Doris Behrens-Abouseif, *The Minarets of Cairo* (Cairo: the American University in Cairo Press, 1985), pp. 30-2.
[٣٢]حسن عبد الوهاب، تارخ المساجد الأثرية، ص ١١٣.

المنارة للاستشارات
www.

الآخر.كما أنه من اللافت للنظر أن البدن الخارجي للقبة التي تحمل هذا العشاري قد زين بخطوط منكسرة متتالية تشبه أكثر ما تشبه أمواج البحر المتلاحقة.

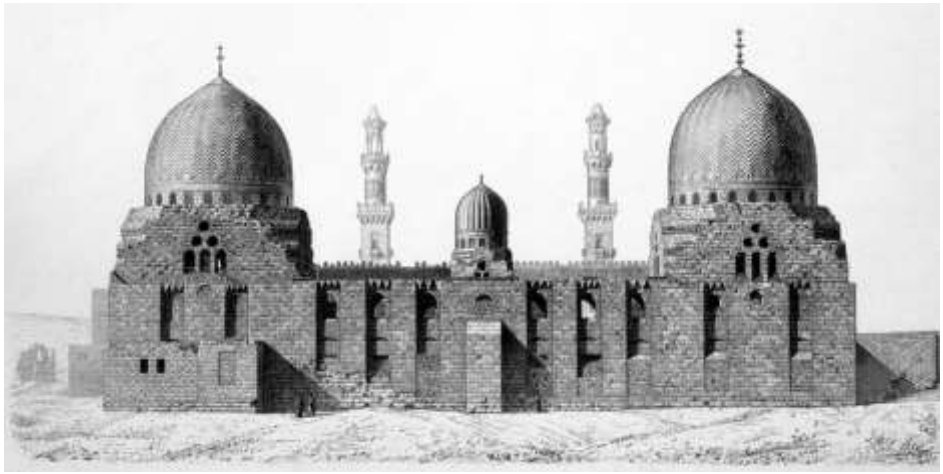

شكل ٦: رسم لخانقاة فرج بن برقوق من الخارج من تنفيذ برس داڤن (عام ١٨٧٧) يظهر العشاريين

(Prisse d'Avennes, *L'art arabe d'après les monuments du Kaire, depuis le VIIe siècle jusqu'à la fin du XVIIIe* (Paris: Ve A. Morel et Cie, 1877)

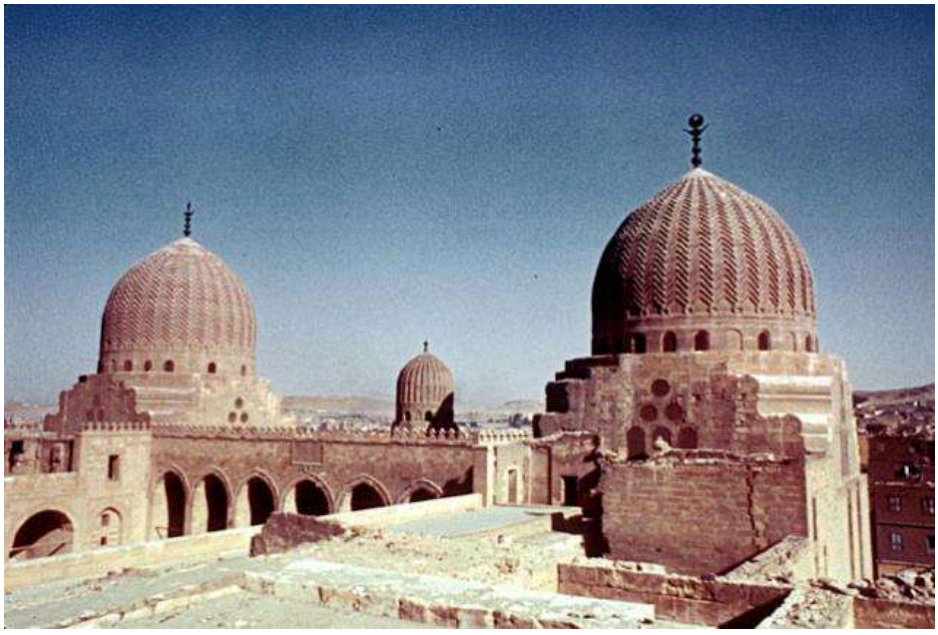

شكل ٧: صورة للخانقاة بكاميرا كارولين وجون وليامز في مطلع القرن العشرين

المنارة للاستشارات
www.

شكل ٨: (أ)

شكل ٨: (ب)

شكل ٨ (أ،ب): القبة الجنوبية الغربية لخانقاة فرج بن برقوق وعليها العشاري

المنارة للاستشارات
www.

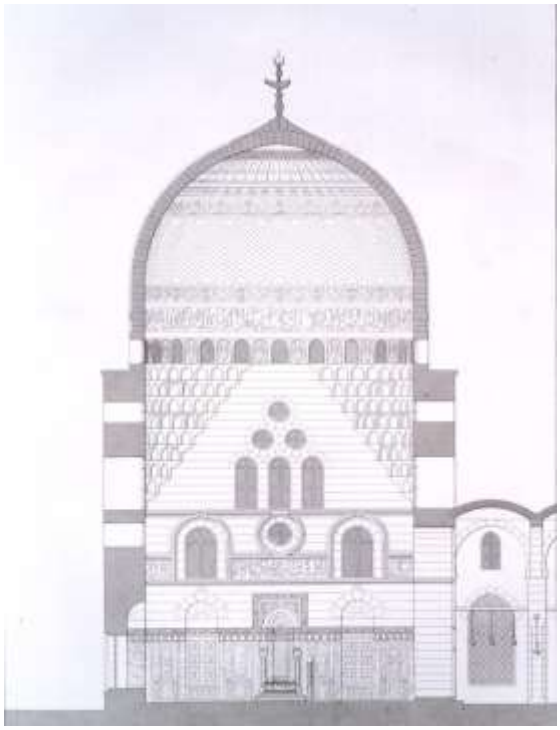

شكل ٩: مقطع رأسي من عمل باسكال كوست للقبة القبلية لخانقاة فرج بن برقوق يظهر العشاري
(Pascal Coste, (1817-27), *Architecture Arabe ou Monuments du Kaire*, pl. x)

شكل ١٠: عشاري من النحاس كان يزين خانقاة فرج بن برقوق- محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة
(Bahrens-Abouseif, *the Minarets of Cairo*, p. 29)

المنارة للاستشارات
www.

ثانياً: أمثلة دارسة للعشاري

عشاري مئذنة الجامع الطولوني

إذا كان العشاري الموجود فوق قبة الإمام الشافعي هو أشهر النماذج التي نعرفها لذلك العنصر الزخرفي في مصر، فإن ذلك الذي كان موجوداً على مئذنة الجامع الطولوني ربما يكون أقدم ما وصل إلينا خبره من تلك النماذج.ذكره المقريزي في مَعْرِض كلامه عن المئذنة، حيث يقول: "والعامة يقولون أن العشاري الذي على المنارة المذكورة يدور مع الشمس وليس صحيحًا، وإنما يدور مع دوران الرياح، وكان الملك الكامل قد اعتنى بوقودها ليلة النصف من شعبان ثم أبطلها".[٣٣] كما نفهم من المقريزي أيضاً أنه كان على هيئة مركبٍ من النحاس.[٣٤]

وأغلب الظن أن هذا العشاري قد نُزع ثم أعيد إلى مكانه مرة أخرى بعد أعمال التجديد والترميم التي قام بها لاجين عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م.[٣٥] ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد استبدل بآخر. ومهما يكن من أمر فقد سقط هذا العشاريعام ١١٠٥هـ (١٦٩٣م)، كما نعرف منالمؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي إثْر ريحٍ عاتية أتت على المدينة بأسرها.يقول الجبرتي: "وفى ثانى عشر رمضان، سنة خَمس ومائة وألف، الموافق لحادى عشر بشنس، هبّت ريحٌ شديدة، وتراب أظلم منه الجو، وكان الناس فى صلاة الجمعة، فظن الناس أنها القيامة، وسقطت المركب التى على منارة جامع طُولون، وهُدمت دور كثيرة".[٣٦]

إلا أن هذا العشاري قد أعيد إلى مكانه مرةً أخري (أو لعله استبدل بآخر)، لأنه ظهر في رسوماتٍ لاحقة على ذلك التاريخ.حيث نجده مرسوماً في اللوحة التاسعة والعشرين من أطلس كتاب وصف مصر، وهي من تنفيذ المعماري والرسام الفرنسيJean ConstantinProtain (ت. ١٨٣٧) (شكل ١١).[٣٧] كما يظهر المركب نفسه في مسقط أمامي للجامع الطولوني أعده المهندس الفرنسي أيضاًPascal Coste (ت. ١٨٧٩) (شكل ١٢)، وكذلك في رسمٍنفذه الرحالة الأسكتلندي Robert Hay (ت. ١٨٦٣) (شكل ١٣)، وآخر بواسطة Prissed'Avennes (ت.١٨٧٩) (شكل ١٤).

---

[٣٣]المقريزي، الخِطط، ج ٣، ص ١٩٩. عن عشاري منارة الجامع الطولوني، انظر أيضاً يوسف أحمد، الجامع الطولوني - المحاضرات الأثرية (القاهرة، مطبعة الترقي،١٩١٧)، ص. ٣٨؛ محمود عكوش: تاريخ ووصف الجامع الطولوني (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٧)، ص. ٨٢-٨٣.

[٣٤]المقريزي، الخطط، ج٣، ص. ١٩٤.

[35]Behrens-Abouseif, *TheMinarets of Cairo*, p. 50, 53.

[٣٦]عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء ١ - ص. ٢٥.

[٣٧] انظر أيضاً محمود عكوش، الجامع الطولوني، ص. ٨٢.

المنارة للاستشارات
www.

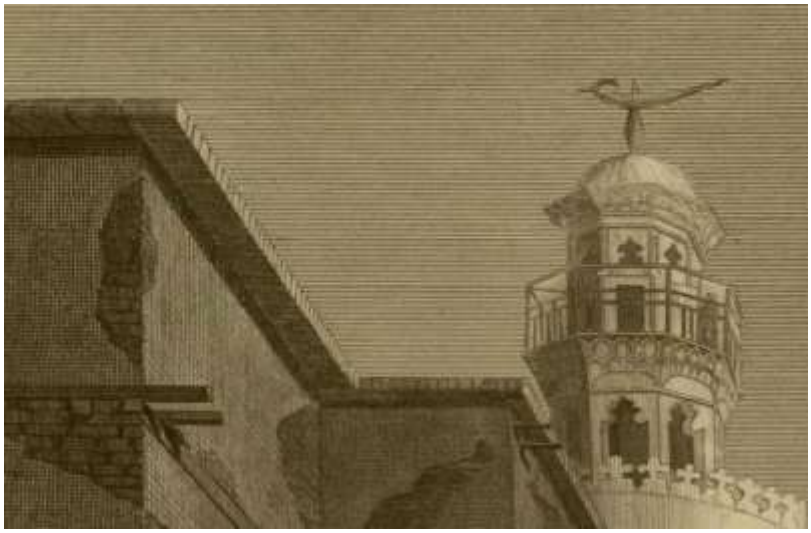

شكل ١١: رسم بواسطة بروتان لمنارة مسجد ابن طولون يظهر العشاري
Protain's engraving (1798-1801), of the spiral-shaped minaret and the north-western *ziyāda.*(Protain, *Description de l'Égypte, ÉtatModerne, Planches* I, PI. 29)

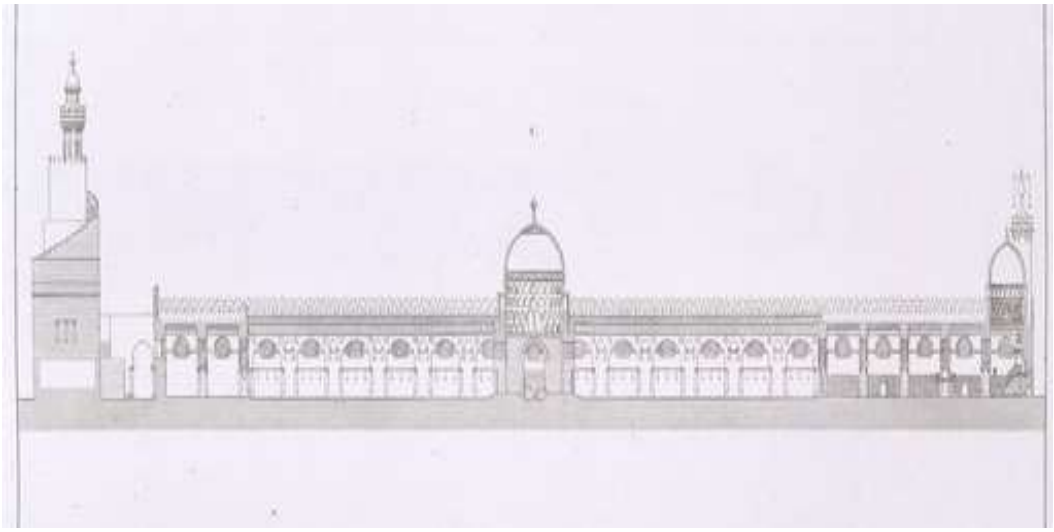

شكل ١٢: مقطع للجامع الطولوني بواسطة باسكال كوست يظهر المنارة وعليها العشاري
(Pascal Coste, (1817-27), *Architecture Arabe ou Monuments du Kaire*, pl. iv)

المنارة للاستشارات
www.

شكل ١٣: رسم لمنارة مسجد ابن طولون بواسطة روبرت هاي يوضح العشاري
Robert Hay's illustration (before 1840), of the spiral-shaped minaret
(Robert Hay, *Illustrations of Cairo,* PI. V)

شكل ١٤: رسم بواسطة برس داڤن يوضح عشاري منارة الجامع الطولوني
Prissed'Avennes's drawings (before 1869)
(*L'Art Arabe* I, PI. Ill)

المنارة للاستشارات
www.

كذلك فقد رآه المسّاح الأشهر لنابليون بونابرت، Edme-François Jomard (ت.١٨٦٢)، وذكر أن طوله عشرة أذرع (ثلاثة أمتار تقريباً)، وأنه كان يُملأ بالحبوب طوال العام حيث كان ينجذب إليه عدد كبير من طيور السنونو (نوع من العصافير).[٣٨] كما ذكره أيضاً Savigny de Moncorps في عام ١٨٦٩،[٣٩] وكذلك Henry de Vaujany في عام ١٨٨٠.[٤٠] لابد أن يكون هذا العشاري قد سقط بعد هذا التاريخ بفترة وجيزة؛ لأنه لا يظهر في أيٍ من الصور التي أُخذت لمنارة ابن طولون في أواخر القرن التاسع عشر. ويخبرنا محمود عكوش أن هلالاً قد حلّ محله في عام ١٨٩٢ (شكل ١٥).[٤١]

شكل ١٥: مئذنة الجامع الطولوني كما تظهر الآن بدون العشاري

[38] K.A.C. Creswell, *Early Muslim Architecture: Part II Early ʿAbbāsids, Umayyads of Cordova, Aghlabids, Ṭulūnīds, and Samānids* (Oxford: Clarendon Press, [n.d.]) , pp. 351-2.

[39] *Journal d'un Voyage en Orient*, p. 53.

[40] H. de Vaujany, *Le Caire et ses environs : caractères, moeurs, coutumes des égyptiens modernes* (Paris : E. Plon, 1883), p. 152.

[٤١] عكوش، الجامع الطولوني، ص. ١٠٣.

المنارة للاستشارات
www.

هل هناك أمثلة أخرى للعشاري في مصر؟

في عام ١٨٩١،كتب Eustace Corbettيقول أنه رأى بالأقاليم وفي مدينة رشيد—على وجهٍ خاص—عدة مراكب فوق مناراتِ مساجدها،[٤٢]أما محمود عكوش فقد أفاد عام ١٩٢٧ بأنه لا يوجد برشيد منارات عليها عشاريات،[٤٣] وهو ما اتفق فيه معه حسن عبد الوهاب عام ١٩٤٦، حيث يذكر أنه زار كثيراً من تلك النواحي فلم يجد أية مراكب فوق مناراتها.[٤٤]إلا أننا نعرف مثلاً أنّ عشاريّاً من الخشب كان يزين قمة مئذنة مسجد سيدي أحمد البجم بقرية إبيار بمحافظة الغربية،[٤٥] والذي كان قد بناه ضياء الدين رضوان الذي ينتهي نسبه إلي سيدنا علي بن أبي طالب، وذلك في عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م. كذلك فإن أحد الجواسق التي كانت بحدائق الخلفاء الفاطميين كان علىسمت قبة يعلوها مركب كان يُملأ بالحبوب لإطعام الطيور.[٤٦]كما تذكر دوريس أبو سيف في عام ١٩٨٥ أن مركباً صغيراً كان ما يزال معلقاً خارج باب زويلة.[٤٧]

أيُّ العشاريات ظهر أولاً؟

يجب علينا، لكي نتتبع أصل العشاري ومَنشأه، أن نعيّن أولاً أياً مِن تلك العشاريات كان أسبق إلى الظهور. وبمطالعة المصادر نجد أن أقدم ذكر في لعشاري هو ذلك الذي يخصّ مئذنة الجامع الطولوني؛ فقد أشار إليه البلوي صاحب سيرة ابن طولون، والذي ألّف كتابه في الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري —أي بعد وفاة ابن طولون بحواليّ ستين عاماً على أصح الأقوال.[٤٨]كما أشار إليه القُضاعي (ت.

---

[42]Eustace K. Corbet, 'The Life and Works of Ahmad Ibn Tulun', *Journal of the Royal Asiatic Society*, (1891): 527-62.

[٤٣]محمود عكوش، الجامع الطولوني، ص. ٨٣، هامش رقم ١.

[٤٤] حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص. ١١٣.

[٤٥]لفت نظري إلى هذه المعلومة مشكوراً الدكتور محمود سعد الجندي، أستاذ الآثار الإسلامية بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة بورسعيد.

[46]Behrens-Abouseif, *The Minarets of Cairo*, p. 30.

[47]Ibid, p. 32.

[٤٨]يرى البعض أن البلوي قد ألّف كتابه في الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري — أي بعد نيف وستين عاما من موت ابن طولون سنة ٢٧٠هـ، أما البعض الآخرفيرى أنه ألّفه بعد زوال الدولة الطولونية بستين عاما—أي في ٣٦٢هـ. ذكر البلوي العشاري على أنه "مركن من النحاس"، وكلامه عن الجامع مقتضب (انظر أبو محمد عبد الله البلوي، سيرة احمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ)، ص. ٥٦. انظر أيضا ص. ٥٢-٤). أما سيرة ابن طولون لابن الداية (ت. حوالي ٢٣٩هـ) فلم يُعثر له على أثر، وإنما نقله لنا ابن سعيد المغربي في كتابه. وابن الداية هو ابو جعفر احمد بن يوسف بن ابراهيم المصري . كان مؤرخاً وطبيباً ومنجماً. نشأ في العراق ثم هاجر مع أسرته إلى مصر وأقام وعمل في القاهرة. وقد استوعب ابن سعيد أكثر كتاب ابن الداية في كتابه "المغرب في حلى المغرب". أما ابن سعيد المغربي فهو أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت. ١٢٨٦/٦٨٥)،بدأ رحلته إلى مصر عام

المنارة للاستشارات
www.

٤٥٤هـ/١٠٦٢م)،الذي ألّف كتاباً في خِطط مصر، أسماه "المختار في ذكر الخِطط والآثار". وهو مفقود، ولكنه وصل إلينا من خلال كتابات مؤرخي القرنين الثامن والتاسع الهجريين مثل المقريزي وابن دقماق؛حيث يذكر الأخير—نقلاً عن القضاعي—أن أحمد ابن طولون كان قد ثبّت مركباً على قمة منارة مسجده.[٤٩] كذلك فقد أشار ابن الطّوير (ت. ٦١٧هـ/١٢٢٠م) إلى عشاري منارة الجامع الطولوني.[٥٠] هذا إضافةً، كما تَقدّم، لمؤرخي القرنين الثامنوالتاسع الهجريين. وأغلب الظن أن العشاري المذكور قديمٌ قدم الجامع نفسه، حيث يقول المقريزي في معرض حديثه عن زيارة أحمد ابن طولون للمسجد ليتفقده بعد الفراغ من عمارته عام ٢٦٥هـ/٨٧٩م: "فلما أراد[أحمد بن طولون] الانصراف، خرج من المقصورة حتى أشرف على الفوّارة، وخرج إلى باب الريح، فصعد النصرانيّ الذي بنى الجامع، ووقف إلى جانب المركب النحاس وصاح: يا أحمد بن طولون! يا أمير! الأمان، عبدك يريد الجائزة[...].[٥١] هذه القصة ذكرها البلوي أيضاً، إلا أنه كتب "المِرْكَن النحاس" بدلاً من "المركب النحاس".[٥٢]ثميروي لنا المقريزي أن الملك الكامل الأيوبي (الذي بنى قبة الشافعي ونصب عليها العشاري كما سبق وأن بيّنا)،كان قد اعتنى بوقود منارة الجامع الطولوني ليلة النصف من شعبان من كل عام.وعليه يذهب بعض المشتغلين بالآثار الإسلامية — اعتماداً على رواية المقريزي ذاتها —إلى أن الكامل كان يوقد العشاري نفسه، لكن نص ما أورده المقريزي يوحي بأن الكامل كان يوقد المنارة وليس العشاري؛ حيث أنه (بعد أن ذكر المنارة والعشاري جميعاً) قد استخدم ضمير الغائبة المؤنثة وليس الغائب المذكر للإشارة إلى ما كان يتم إيقاده، وهذا نص ما قاله: "وكان الملك الكامل قد اعتنى بوقودها ليلة النصف من شعبان".[٥٣]وعلى كل الأحوال فإنه يصحّ القول بأن الكامل ربما يكون قد أخذ فكرة العُشاري الذي وضعه على قبة الشافعي من ذلك الذي كان موجوداً على منارة ابن طولون والتي كان يتعهدها بالصيانة كل عام.

٦٤٠هـ/١٢٤٣م وأقام فيها مدة، فوصفها بإفاضة في كتابٍ أسماه"النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة".

[٤٩]ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، تحقيق فولرز (القاهرة: المكتبة الخديوية، ١٨٩٣) ص. ١٢٣.

[٥٠] انظر ابن الطّوير، نزهة المقلتين ، ص ١٩٨.

[٥١] المقريزي، الخطط، ج٣، ص. ١٩٤.

[٥٢] راجع البلوي، سيرة أحمد ابن طولون، ص. ١٨٣.

[٥٣] المقريزي، الخِطط، ج ٣، ص ١٩٩.

المنارة للاستشارات
www.

ما هو أصل عُشاري أحمد بن طولون؟

يعتقد كريسويل، ويتفق معه آخرون، أن فكرة العشاري مأخوذة من الفنالمصري القديم وعلى وجه التحديد مركب المعبود رع (شكل ١٦).[٥٤] إلا أن طارق سويلم، الذي بدا متفقاً مع الفكرة، قد اعترض على استخدام كريسويل لمصطلح "مركب رع"، موضّحاً أن المراكب التي اكْتُشفت في المقابر المصرية القديمة ليست منسوبة للمعبود رع، وإنما هي نماذج صغيرة لمراكب حقيقية كانت تستخدم في نهر النيل.[٥٥]

شكل ١٦: ما يعرف خطأً بمركب إله الشمس رع

يرتكز هذا الرأي بشكل عام إلى افتراض أن الكنز الشهير الذي يقالبأن أحمد بن طولون قد عَثُر عليه كان في الواقع مقبرة مصرية قديمة. وبالرجوع إلى المصادر العربية، نجد أن ابن دقماق قد ذكر أن ابن طولون، بينما كان يُوضّح للناس أنه قد بنى المسجد من مالٍ حلال، قد أكد أنه أنفق على بناءه من كنزٍ كان قد عثر عليه، وأن المركب النحاسي الذي على قمة المنارة إنما هو من ذلك الكنز.[٥٦] كان البلوي من قبل قد ذكر أن أحمد ابن طولون قد "بنى الجامع الجديد، بما أفاء اللهُ عليه من المال الذي وجده فوق الجبل، في الموضع المعروف بتنور فرعون".[٥٧] كذلك فقد نقل إلينا ابن تغري بردي جانباً من خبر ذلك الكنز. إلا أن أكثر من فصّل فيه هو المقريزي؛ حيث أفرد له عنواناً في خططه أسماه "حديث الكنز".[٥٨]

---

[54]Creswell, *Early Muslim Architecture*, II, 337.

[55]MuhamadTarekSwelim, 'The Mosque of Ibn Ṭulūn: A New Perspective' (unpublished doctoral Thesis, Harvard University, 1994), p. 257, n. 168.

[٥٦]ابن دقماق، الانتصار، ص. ١٢٣.

[٥٧] انظر البلوي، سيرة ابن طولون، ص. ٥٦. للمزيد عن خبر الكنز، انظر ص. ٧٦.

[٥٨]انظر المقريزي، الخطط، ج٣، ص. ١٩٦-١٩٨.

المنارة للاستشارات
www.

إلّا أن كريسويل لم يكن دقيقاً عندما روى خطأً (على عهدة ابن تغري بردي) أن ابن طولون قد وجد الكنز المذكور في جنوب مصر؛[٥٩] فرواية ابن تغري بردي نفسُها تخلو من أية إشارة إلى أن مكان الكنز كان بصعيد مصر.[٦٠] كذلك فقد تبنّى عبد العزيز جمال الدّين، محقّق تاريخ الجبرتي، نفس وجهة النظر التي تقول بأن مركب رع هي أصل العشاري. وأضاف أن مركب إله الشمس رع هذه كانت توضع فوق المعابد المصرية، وأن المصريين قد اتبعوا نفس العادة عند بناء مساجدهم. وهو ما لم نجد ثمّة دليلاً عليه.

أما دوريس أبوسيف فتميل إلى الاعتقاد بأن عُشاريَّيْ قبة الشافعي ومنارة ابن طولون ربما يكونا قد تأثرا بما أسمته "تقليداً مصرياً بوضع نماذج صغيرة لمراكب داخل المقاصير". مضيفةً أن أشهرمثالٍ لتلك النماذج في مصر الإسلامية هو ذلك المركب الذي بداخل ضريح أبي الحجاج الأقصري (ت. ٦٤٢هـ/ ١٢٤٥م)، والذي يطاف به في شوارع مدينة الأقصر في الموكب السنوي الذي يقام يوم ميلاده، وهو ما يعرف شعبياً بدورة أبي الحجاج (شكل ١٧). ثم تُرجّح أبو سيف أن يكون ذلك التقليد (وضْع نماذج صغيرة لمراكب داخل المقاصير) عادةً مصريةً قديمة (فرعونية) انتقلت إلى الثقافة الإسلامية في مصر (شكل ٢٠).[٦١]

[59] Creswell, *Early Muslim Architecture*, II, 336, n. 10.

[٦٠] أبو المحاسن ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد شمس الدين، ١٦ جزء (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢)، ج ٣، ص. ١١-١٤.

Swelim, *The Mosque of Ibn Ṭulūn*, p. 93, n. 12.

[61] Doris Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture in Cairo: an Introduction*, (Leiden: Brill, 1989), pp. 85, 87.

المنارة للاستشارات
www.

شكل ١٧: جانب مما يعرف بدورة أبي الحجاج الأقصري(عام ٢٠١٤)

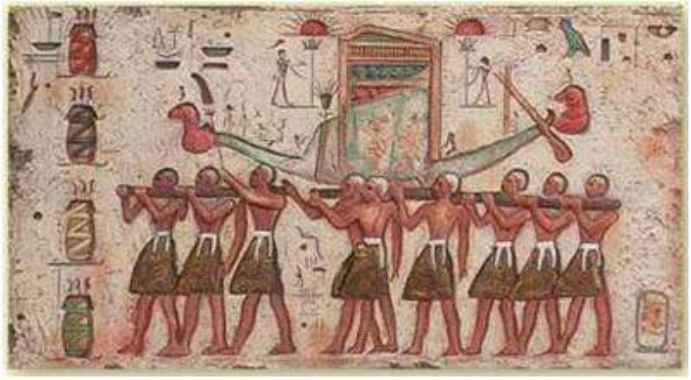

شكل ١٨: نقش يوضح جانب من احتفال أوبت في مصر
القديمة: الكهنة يحملون الزورق المقدس للمعبود آمون

المنارة للاستشارات
www.

شكل ١٩: هيكل القارب المقدس في معبد إدفو

شكل ٢٠: نماذج خشبية صغيرة لمراكب من مقبرة جِحوتي نَخت (عصر الانتقال الأول)

و نحن هنا يجب أن نفرّق بين أمرين:أولاً: "دورة أبي الحجاج" (شكل ١٧)، والتي يمكن أن تكون قد تأثرت باحتفال أوبت في مصر القديمة (شكل ١٨، ١٩)؛ وثانياً: "عادة وضع نماذج صغيرة لمراكب داخل المقاصير"، والتي ربما تكون قد تأثرت بالعادة المصرية القديمة الخاصة بإلحاق الأثاث الجنَزي للملوك والأفراد بمقابرهم، خاصة أن ذلك الأثاث الجنزي عادةً ما كان يحتوى على نماذج صغيرة لممتلكات صاحب المقبرة من مراكب وغيرها (شكل ٢٠).

إن أياً من الأمرين لا يرقي أن يكون «تقليداً» في مصر الإسلامية، لأن الأمثلة عليهما محدودة؛ فنحن لا نعرف مثلاً دورة غير تلك التي لأبي الحجاج. كما أن الأمثلة على وضع نماذج صغيرة لمراكب داخل المقاصيرمحدودة أيضاً؛ ومثال على ذلك مركبٌ صغيرٌ كان محفوظاً بمقصورة سيدي سارية بالقلعة، ولقد بقي هذا

المنارة للاستشارات
www.

المركب حتى أعمال الترميم التي تمت مؤخراً.[٦٢] ومن ذلك أيضاً ما ذكره حسن عبد الوهاب من أنه لاحظ وجود بعض مراكب صغيرة من الخشب أو الورق معلقة فوق مقاصيربعض الأضرحة الموجودة على النيل في مدينة رشيد.[٦٣]

وبناءاً على ما تقدم، يمكن القول بأن من الوارد أن يكون العُشاري الأول—الخاص بمنارة الجامع الطولوني—كان من محتويات كنز قديم عثُر عليه ابن طولون.وربما اتُّخذ هذا العشاري نموذجاً لعشاري قبة الشافعي. من المرجّح أيضاً أن تكون دورة أبي الحجاج قد تأثرت بعيد أوبت. ومن غير المستبعد أن يكون وضع نماذج لمراكب داخل الأضرحة قد تأثر بمحتويات الأثاث الجنزي في مصر القديمة. إلّا أن أياً من الأمرين، سواء دورة أبي الحجاج أو وضع نماذج لمراكب داخل الأضرحة، لا يمكن أن يكون هو أصل العشاري، لأن عشاريَّي ابن طولون والشافعي سابقان على كل هذه الأمثلة.

النتائج

كما رأينا فإن هناك ما يشبه الإجماع على أن العشاري، في شكلهومسمّاه، قد اشْتُق من زورق العشاري صغير الحجم الذي كان—وما يزال—يستخدم في مياه النيل في مصر على طول تاريخها، وهو ما لا يتعارض مع احتمالية أنّيكون العشاري الأول (ذلك الذي يخصّ منارة الجامع الطولوني) موروثاً مصرياً قديماً، استخدمه ابن طولون ليزّين منارة مسجده، ومن ثمّ أطلق عليه الناس اسم العشاري لقرب هيئته من زورق النيل الذي كان معروفاً في زمانهم باسم العُشاري. إلا أن هناك من يعتقد أن عشاري قبة الشافعي، ومن قبله عشاري منارة الجامع الطولوني،يشبه نوعاً من قناديل الزيت كان رائجاً في العصور الوسطى،[٦٤] وتستند وجهة النظر هذهإلى ما أشار إليه المقريزي من أن عشاري منارة الجامع الطولوني كان يوقد أيام الأيوبيين.[٦٥] ونحن هنا يجب أن نقول أنه لا يوجد من بين المصادر العربية القديمة،المتاحة لنا، مَن ذكر أن أياً من العُشاريَّيْن كان قنديلاً يُضاء. كما أن استخدام المقريزي لضمير الغائبة المؤنثة، كما أوضحنا سلفاً، يشير إلى أن ما كان يتم إيقاده هو المنارة—وتحديداً طابقها العلوي—وليس العشاري كما يفهم البعض. يعضّدُ هذا أنالبلوي والقضاعي، وهما أقدم المصادر التي بين أيدينا فيما يتعلق بالكلام عن

---

[62] Behrens-Abouseif, *Islamic Architecture in Cairo*, pp. 87.
في عام ١٩٨٥ ذكرت دوريس أبو سيف أن المركب المذكور كان لا يزال موجوداً بضريح سارية الجبل الذي يعود تاريخه إلى الفترة الفاطمية، والذي أعيد بناؤه في مستهل القرن السادس عشر.
Behrens-Abouseif, *The Minarets of Cairo*, p. 32.

[٦٣] حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص. ١١٣.

[٦٤] من اللافت أيضاً في هذا الشأن أن العشاري يشبه كذلك أنماطاً مختلفة من الخِفاف التي كانت سائدة في مصر الإسلامية على طول تاريخها؛ فكل هذه الأشياء (الزورق وقنديل الزيت والخُف)لها قطاع جانبي على شكل هلال مفتوح إحدى طرفيه أعلى من الآخر.

[65] See Behrens-Abouseif,*The Minarets of Cairo*, pp. 32, 53.

المنارة للاستشارات
www.

عشاري منارة الجامع الطولوني، قد استخدما كلمة "مركب"، وليس "قنديل"، للإشارة إلى ذلك العنصر الزخرفي. كما أن البوصَيْري صاحب البردة، وهو أقدم من أشار إلى عشاري قبة الشافعي، قد استخدم لفظة "سفينة" عندما أراد الحديث عنالعشاري المذكور.ومن بين ما وصلنا من مصادر وكتابات، فإنأول مناستخدم مصطلح "عشاري" للإشارة إلى ذلك العنصر الزخرفي هو ابن الطّوير المتوفى عام ٦١٧هـ/١٢٢٠م، وذلك عند إشارته إلى عشاري منارة الجامع الطولوني في كتابه الموسوم "نزهة المقلتين في أخبار الدولتين". وعليه يصح القول بأن ذلك العنصر الزخرفي كان ينظر إليه، في بادئ الأمر بالأحرى، على أنه نموذج لمركب وليس قنديل.

وربما تغيرت الحال فيما تلا من أزمنة، فهيئة العُشاري الذي كان يزين القبة الشمالية الشرقية لخانقاة فرج بن برقوق، والمحفوظ الآن بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وما يحتوي عليه من فتحات يجعله أقرب شبهاً إلى القنديل منه إلى الزورق. وربما يكون هذا التنوع المحتمل في وظيفة ورمزية العشاري مرتبط— إضافةً إلى العامل الثقافي — بتنوع العمائر التي تزيّنت بذلك العنصر الزخرفي في مصر الإسلامية على الرغم من قلة الأمثلة المعروفة عليه؛ فمن مسجد (أحمد بن طولون) إلى قبة ضريحية (الشافعي) إلى خانقاة (فرج بن برقوق). وهو ما يجعل من كلٍ من هذه العشاريات حالةً قائمةً بذاتها: فإما أنه كان يُملأ بالحبوب لتقتات عليه الطيور كما في حالة عشاري الشافعي منذ القدم، وابن طولون في عصور متأخرة، أو أنه كان رمزاً لسعة العلم والمعرفة مثلما في حالة عشاري قبة الشافعي، أو أنه كان يُضاء في بعض المناسبات الدينية. وربما أدى وظائف أخرى في أوقاتٍ بعينها؛ فمن ذلك ما أورده ابن الطّوير عند حديثه عن الاحتفال بعيد وفاء النيل أيام الفاطميين (وتحديداعام ٤٦١هـ/١٠٦٧م)، من أن حبلاً كان يُرْبَط في عمود العشاري الذي على منارة الجامع الطولوني يُمْسِك به رجلٌ بزي الفارس يؤدي حركات بهلوانية بينما كان يتدحرج بواسطة الحبل حتى ينزل إلى الشارع إلى حيث يجلس الخليفة.[٦٦]كما يروى المؤرخ التركي EvliyaÇelebi (ت. بعد عام ١٦٨٢) في كتابه Seyâhatnâme (كتاب الأسفار) أنه كان يُنْظر لعشاري أحمد ابن طولون في غضون القرن السابع عشر على أنه تميمةٌ أو طلسمٌ لحماية المدينة من مخاطر فيضان النيل.[٦٧]يعزز هذا ما نعرفه من أمثلة أخرى لهذا الدور الطلسمي للمركب في ثقافات إسلامية متعددة؛ فعصيّ رايات السلاجقة في إيران على سبيل المثال كانت تزخرف برسم لمركب

[٦٦]طالع ابن الطوير، نزهة المقلتين ، ص ١٩٨.
انظر أيضاً:
Behrens-Abouseif, *The Minarets of Cairo*, pp. 53-4; Jonathan Bloom, *Minaret: Symbol of Islam*، (Oxford, 1989), 129.

[67]Beherens-Abouseif, *Minarets*, p. 54

المنارة للاستشارات
www.

ذهبي عند قمتها.[٦٨] ويبدو أن العشاري قد احتفظ بهذا الدور حتى القرن التاسع عشر، حيث يذكرEdward William Lane أن حركة عشاري قبة الشافعي—ومن ثمّ الوجهة التي كان يستقر عليها— كانت تفَسّر على أنها بشير خير أو نذير شؤم. بقي أن نؤكد على أن الوظيفة التي كان يؤديها كلٌ من هذه العشاريات وكذا القيمة التي كان يرمز إليها قد اختلف من عصر إلى آخر؛ فليس لدينا ما يؤكد أن الدور الطلسمي الذي نُسب لعشاريّيْ منارة الجامع الطولوني وقبة الشافعي في عصور متأخرة كان من بين الأغراض التي من أجلها وُضِع أي منهما، ولكنها أدوار خلعتها عليهما معتقدات الناس في عصور لاحقة.

[68]Ibid, p. 32.

المنارة للاستشارات
www.

المصدر الإلكتروني لما تمت الاستعانة به من صور وأشكال بخلاف تلك التي من عمل الباحث

شكل ٢: http://simerg.com/literary-readings/excavation-of-a-byzantine-shipwreck-and-the-discovery-of-fatimid-artefacts/

شكل ٤ (جـ): https://www.flickr.com/photos/mitopencourseware/3103187640

شكل ٨: (أ): http://stocksexperts.net/showthread.php?t=33441

شكل ٨ (ب): http://kenanaonline.com/users/walaa/photos/1173776359

شكل ١٥:
http://alshamtoday.net/data.php?s=2&cat=26&id=5387#.VElRE2f2md0

شكل ١٦: https://ferrebeekeeper.wordpress.com/2012/05/

شكل ١٧: http://www.mobtada.com/details.php?ID=202178

شكل ١٨: http://www.qudamaa.com/vb/showthread.php?t=27827

شكل ١٩: http://grzegorzgajewski.com/?page_id=34

شكل ٢٠: http://www.everythinghere1.com/2014/05/5.html

المنارة للاستشارات
www.

Abstract

The ʿ*ushārī* is a curious boat-like finialsurmounting some domes and minarets in Islamic architecture, particularly in medieval Egypt. A good example ofit is the copper dinghy which once topped the minaret of Aḥmad b. Ṭulūn'smosque in Cairo(265/879), and which retained its position on the minaret,even after the restoration works of Lajīn in 696/1296. Itreportedly fell down in 1105/1693. This ʿ*ushārī*, however, must have beenbrought back to its original place, or rather replaced with another one, for it appears in a number of nineteenth-century drawings of IbnṬulūn's minaret. Meanwhile, the south-eastern dome of Faraj b. Barqūq'skhānqā (built between 802/1400 and 814/1411) still preserves a small copper boat on its summit. This being said, the most popular ʿ*ushārī* example in Islamic architecture is the small bronze boat which adorns the funerary dome of imam al-Shāfiʿī in Cairo (608/1211), and which was reportedly filled up with grains and cereals so as to feed the hovering birds. Some tend to believe that the boat was a symbol for al-Shāfiʿī's outstanding erudition — hence known as the 'sea of knowledge'. A group of art historians believe that the ʿ*ushārī* derived from Ancient Egyptian architecture and that it was given such a name in Islamic era on account of itsresemblance to the small ʿ*ushārī* boat that was then familiar. According to others, the term ʿ*ushārī* derives from the fact that such model boats were usually filled up with grain tenths (ʿ*ushūr al-ḥubūb*) out of charity. In spite of the limited known examples of the ʿ*ushārī*, the curiosity and distinctiveness of this ornamental element deservedly grabbed the attention of travellers and art historians (past and present). Nonetheless, all that is written so far about the ʿ*ushārī* is inadequate: majorly succinct reiterated descriptive accounts. Therefore, the present study sets out to: investigate the origin of the ʿ*ushārī*; study its examples (whether extant or vanished); and define the function(s) which it served and the value it symbolized.

Keywords: ʿ*ushārī*, boat, dome, minaret, derivation, function, symbolism

المنارة للاستشارات

www.